﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

[هود: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذكرِ الموعدِ يتجلَّى ذكـرُ ما فيه

اتَّصلت هذه الآية "بما قبلها من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظّالمة، فبعد أن ذكر الله تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظّالمة في الدُّنيا، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسُّعداء، وهي إقامة الدليل على صدق الأنبياء وصدق وعد الله في الآخرة، والتَّرهيب من عصيان الله والكفر به"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَكَلَّمُ﴾: "الكافُ واللّامُ والميمُ أصْلانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، والآخَرُ على جِراحٍ"[2]، أي: تتكلَّم من الكلام، وهو النُّطق بما يجولُ في النَّفس وما تضمره القلوب، قال الرّاغب: الكلْمُ: التأثير المدرك بإحدى الحاسّتين، فالكَلامُ: مدرك بحاسّة السّمع، والكَلْمُ: بحاسّة البصر فالكَلامُ يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة[3]، والمقصود في الآيةِ هو الكلام المنطوق، أي: لا تتكلّمُ نفسٌ بشيءٍ إلا بإذن الله تعالى.

2) ﴿شَقِيٌّ﴾: "الشّينُ والقافُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ"[4] شقا: الشَّقاءُ والشَّقاوةُ، بالفَتْحِ: ضدُّ السَّعادَةِ، "[5]، والشقيّ هو الذي دخل النّار خالدًا فيها.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 12/146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقو).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شقا).

3) ﴿وَسَعِيدٌ﴾: "السّينُ والعَيْنُ والدّالُ أصْلٌ يَدُلُّ على خَيْرٍ وسُرورٍ"[1]، والسَّعيد هو الشَّخص الذي لازمته السَّعادة فصار متلبِّسًا بها، ولازمته الأحوال الحسنة الكريمة وذلك بسبب إيمانه وما يفعله من الصّالحات، قال الرّاغب: "السَّعْدُ والسَّعادَةُ: معاونة الأمور الإلهيّة للإنسان على نيل الخير، ويضادّه الشّقاوة، يقال: سَعِدَ وأَسْعَدَهُ اللّه، ورجل سَعيدٌ، وقوم سُعَداءُ، وأعظم السّعادات الجنّة"[2]، والسعيد هو الذي دخلت في قلبه السَّعادة الأبديَّة في جنّة اللّه الخالدة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلّم أحدٌ إلا بإذن اللّه تعالى، فهو صاحب الأمر والنَّهي، ولا يملك أحدٌ فيه قولًا ولا فعلًا إلا بإذنه، فمن أهل الجمع من النّاس في ذلك اليوم شقيٌّ معذَّبٌ لكفره وعصيانه، ومنهم سعيدٌ منعَّمٌ في الجِنانِ لإيمانِه واستقامته، أخبر تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7]، فمن أريد له الشَّرُّ فعملَ الشَّرَّ فهو من أهل الشَّقاوة، ومن أريد له الخيرُ فعملَ الخيرَ، فهو من أهل السَّعادة، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له[3].

يـوم القيامة تخرسُ الألسنُ وينقسمُ النّاسُ أشقياءَ وسعداء

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصل:

فُصِلَت هذه الآيةُ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ عن سابقتِها لكمالِ الاتِّصال، لكونها بيانًا وتفسيرًا لها، فجاءت "تَفْصيلًا لِمَدْلولِ جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، وبَيَّنَتْ عَظَمَةَ ذلك اليَوْم في الشَّرِّ والخَيْرِ تَبَعًا لذَلِك التَّفْصيل، فالقصد الأوَّلُ منْ هذه الجملة هو قَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ

بيانُ الآخرةِ بأنَّها سعدٌ للمؤمنين وشقاءٌ للكافرين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (سعد).
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/148.

شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بَعْدَهُ، وأمّا ما قَبْلَهُ فتَمْهيدٌ لهُ أفْصَحَ عَنْ عَظَمَةِ ذلك اليَوْم"[1].

معنى ﴿يَوْمَ﴾ ودلالةُ استعمالِها:

اليوم بمعنى الحين وهو حينٌ مهولٌ عظيم

معنى ﴿يَوْمَ﴾ منْ قَوْله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنَى (حينَ) أو (ساعَةَ)، وهو اسْتِعْمالٌ شائعٌ في الكَلام العَرَبيِّ في لفظ (يَوْم) و(لَيْلَة) تَوسُّعًا بإطْلاقِهما على جُزْءٍ منْ زَمانِهما، إذْ لا يَخْلو الزَّمانُ منْ أنْ يَقَعَ في نَهارٍ أو في ليْلٍ، فذلك يَوْمٌ أو ليْلَة فإذا أطلقها هذا الإطْلاقَ لم يُسْتَفَدْ منْهُما إلّا مَعْنَى (حينَ) دونَ تَقْديرِ بمُدَّةٍ ولا بنَهارٍ ولا ليْلٍ، فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ مَعْناهُ: حينَ يَأْتي، وضَميرُ (يَأْتي) عائدٌ إلى ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وهو يَوْمُ القيامَةِ، والمُرادُ بإتْيانِهِ وُقوعُهُ وحُلولُهُ"[2].

غرض تقديم الظَّرف على عامله:

من وسائل النَّجاة أن تحسنَ قَدْرَ الشيء حقَّ قدره

قُدِّم الظَّرف: ﴿يَوْمَ﴾ على عامله للاهتمام به، ولفت النَّظر إليه، والمقام يستدعي تقديمه إذ هو مقام تفخيم شأن هذا اليوم وتعظيم أمره ليحذره النّاس ويقدروا له قدره.

توجيه قراءتي ﴿يَأْتِ﴾، (يأتي):

يومٌ جمع بين المختلفاتِ خفَّةً وثقلًا، كلٌّ بحسبه

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ "بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل"[3].

قال الآلوسي: "ووجه حذفها في الوقت التشبيه بالفواصل، ووصلًا ووقفًا التخفيف"[4]. وكأنّي أرى أنَّ حذفها جاء تخفيفًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/293.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/140.

وتسريعًا لعرض موقف القيامة وما فيه من أهوال فهو يمرُّ سريعًا على السُّعداء بطيئًا ثقيلًا على الأشقياء.

وأمّا مَن قرأها بإثبات الياء فإنَّما نظر إلى إشباع الفعل بإثبات يائه مع كسره تصويرًا لهول الموقف وطوله، وما يعتريه من الحساب والجزاء وإثبات الأعمال ونفيها والإشهاد على ذلك أمامه ﷻ فناسب ذكر الياء واختلف في مرجع ضمير الإتيان فقيل: للجزاء، وقيل يعود عليه ﷻ، وفيه من تفخيم هذا اليوم وتعظيمه ما فيه، فمَن قرأها مثبتة فلمجيئها على أصل الفعل فلا ناصب ولا جازم هنا.

فائدة الاستئناف في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾:

قطعُ الأنفاسِ واكتفاءٌ بالأهماس

وردت هذه الجملة ابتدائيَّة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال في الجملة السّابقة ماذا يحدث من إتيان هذا اليوم؟ فجاء الجواب: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، ليُزيلَ هذا الإبهام ويجيب عن هذا السُّؤال، والمعنى: لا تتكلَّم نفس حين يأتي هذا اليوم المشهود الذي جمع الله فيه الخلائق للعرض والحساب، وهو اليوم الذي أخَّره الله وضربه فانقضى أجله كما اقتضته الحكمة الإلهيَّة لبدء الفصل والجزاء.

دلالة حذف التّاء:

الإشارةُ إلى حذفِ الكلام عند إتيانِ الحساب

حُذفت إحدى التاءين في الفعل (تتكلَّم) تخفيفًا، و"إشارة إلى أنَّ شدَّة هوله تمنع أهل الموقف الكلام أصلًا في مقدار ثلثيه، ثم يؤذن لهم في الكلام في الثُّلث الآخر بدلالة المحذوف وقرينة الاستثناء، فإنَّ العادة أن يكون المستثنى أقلّ من المستثنى منه ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ ولو أقلَّ كلام بدلالة حذف التّاء"[1]، وهذا من باب الإشارةِ التي تُستملح ولا يُطلبُ لها الدَّليل القاطع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/275، 274.

توجيه قراءة ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ بتشديد التاء في الوصل بالمد المشبع:

شَدَّةٌ تصوِّرُ شِدَّةَ

قرأ البزّيُّ بمدّ (لا) وإشباعها مع تشديد التّاء من الفعل ﴿تَكَلَّمُ﴾ تصويرًا لهول هذا اليوم وتفخيمًا لأمره، وكأنَّه يعرض للسّامع هذا العرض مع لفت ذهنه إلى ما يلي هذا المدَّ، ثم يوقع هذا الذِّهن على أمر مهمٍّ هو عدمُ التَّكلُّم والتعرُّض إلّا بإذنه تعالى، وهذا توجيهٌ مبنيٌّ على الإشارةِ المليحةِ.

سرُّ تنكير ﴿نَفْسٌ﴾:

صـمـتٌ يـعـمُّ الجميع

أفاد تنكيرُ لفظِ ﴿نَفْسٌ﴾ العمومَ، حيث "يَعُمُّ جَميعَ النُّفوسِ لِوُقوعِهِ في سياقِ النَّفْيِ، فشَمِلَ النُّفوسَ البَرَّةَ والفاجِرَةَ، وشَمِلَ كَلامَ الشّافِعِ وكَلامَ المُجادِلِ عَنْ نَفْسِهِ، وفُصِّلَ عُمومُ النُّفوسِ باخْتِلافِ أحْوالِها، ولَكِنَّهُ جاءَ على هذا النَّسْجِ لِأجْلِ ما تَخَلَّلَ ذلك منْ شِبْهِ الِاعْتِراضِ بقولِهِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ وذلك نَسيجٌ بَديعٌ"[1].

توجيه الاستثناء:

الـكـلام ممنوعٌ كلُّه يوم القيامةِ بقطعِ النَّظر عن سببِه

قيل إنَّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ "من أعمّ الأسباب، أي: لا تكلّم نفس بسبب من الأسباب إلا بسبب إذنه تعالى وهو متَّصل، وجُوّز أن يكون منقطعًا، ويقدّر ما لا يتناول المستثنى، أي: لا تكلّم نفس باقتدارٍ من عندها إلا بإذنه تعالى، ولا يخفى أنَّ هذا استثناء مفرغ[2].

توجيه استشكالٍ:

هنا وقفة: "فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية التي تنفي الكلام عن كلِّ نفسٍ إلّا بإذن الله تعالى وبين قوله تعالى: ﴿*يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النَّحل: 111]؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/140.

فالجواب: أنّ في يوم القيامة مواقف متعدِّدة، ففي بعضها يجادل النّاس عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام إلّا بإذن الله، وفي بعضها يُختم على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، وفي هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أنَّ أصنامهم ستدافع عنهم، وستشفع لهم يوم القيامة"[1].

قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف يوفّق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿*يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: 111]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: 35- 36]، قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام فلا يُؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلّمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم"[2].

معنى الفاء:

تفريعُ المعاني على المعاني

الفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ للتَّفريع، أي: تفريع أهل الشَّقاوة وأهل السَّعادة على النَّفس التي لا تتكلّم، فلا أحد يتكلَّم إلا بإذن الله تعالى، فتُحاسب النُّفوس المحاسبة العادلة، بين شقيٍّ وسعيد.

فائدة تقديم المسند:

النّاسُ في الآخرةِ قسمانِ لا ثالثَ لهما

قُدِّم المسند ﴿فَمِنْهُمْ﴾ على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، لتخصيص أنواع النّاس يوم القيامة بأنَّ منهم الشَّقيَّ والسَّعيد، وفيه ردٌّ على المعتزلة بأصلهم في المنزلة بين المنزلتين، فمآل الناس إما لشقيٍّ خالدٍ في النّار، وإمّا سعيد خالدٌ في الجنَّة.

بديعُ الاكتفاء:

استُغني عن إعادة كلمة (منهم) في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

(1) طنطاوي التفسير الوسيط: 7/274.
(2) الزَّمخشري، الكشاف: 2/293.

﴿وَسَعِيدٌ﴾ فلم يقل: (ومنهم سعيد)، لدلالة الأولى عليها، من باب الاكتفاء بلفظٍ عن آخر.

فائدةُ التَّفصيل:

تَفْصيلٌ مُفيدٌ لعقلٍ رشيدٍ

جاء قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تفصيلًا مفيدًا، لتَفْصيلِ النّاس في قولهِ: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، ولَكِنَّهُ جاءَ على هذا النَّسْجِ لِأجْلِ ما تَخَلَّلَ ذلك منْ شِبْهِ الاعْتِراضِ بقولهِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلى قولهِ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ وذلك نَسيجٌ بَديعٌ"[1].

بديعُ الجامعِ مع التَّفريق:

خطابُ العقولِ فيه رسوخُ القبول

بين قوله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ما يسَّمى بالجمع مع التَّفريق، والجمع هو" أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، والتَّفريق هو: إيقاع تباين بين أمرين من نوع في المدح أو غيره"[2]، فجمع أوَّلًا الفريقين في لفظ النفس، ثم فرَّق بينهما.

بديعُ الطِّباق:

التَّقابل بين المختلفين يُرسِّخ غورَ الخسارة في مقابلةِ علوِّ السَّعادة

ورد الطِّباق في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بين اسمين، كل واحد منهما يدلّ على الثُّبوت والدَّوام، "والشَّقيُّ: فعيلٌ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ منْ شَقيَ، إذا تَلَبَّسَ بالشَّقاءِ والشَّقاوةِ، أيْ سوءِ الحالَةِ وشَرِّها وما يُنافِرُ طَبْعَ المُتَّصِفِ بها، والسَّعيدُ: ضِدُّ الشَّقيِّ، وهو المُتَلَبِّسُ بالسَّعادَةِ التي هيَ الأحْوالُ الحَسَنَةُ الخَيِّرَةُ المُلائِمَةُ لِلْمُتَّصِفِ بها، والمَعْنَى: فمنْهُم يَوْمَئِذٍ مَنْ هو في عَذابٍ وشِدَّةٍ ومنْهُم مَنْ هو في نِعْمَةٍ ورَخاءٍ"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(2) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/46، 45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.

نكتةُ التَّقديم:

السَّعادةُ أمرٌ نفيسٌ تحصيلُه

وتقديم الشَّقيّ على السَّعيد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، لأنَّ المقام مقام إنذار وتحذير، ولأنَّ أكثر النّاس في فريقِ الشَّقاوةِ، ولأنَّ تأخير السَّعادة يبرهن على نفاسةِ تحصيلِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

نفسٌ وأحدٌ:

النّفس: الرّوح، وأحد بمعنى واحد

النَّفْس والجمع أَنْفُسٌ ونُفوس والمَنْفوس والمُتَنفِّس ذو النَّفَس[1]، ويطلق لفظ النَّفس في اللغة على روح الإنسان، وعلى ذاته وعلى الدم، قال في المصباح المنير: والنَّفس أنثى إن أُريد بها الروح، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وإن أُريد الشخص فمذكّر[2]، والنَّفس هي لطيفة ربانيّة روحانيّة، لها بهذا القلب الجِسمانيّ تعلُّق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب والمعاتب[3].

وأما (أحد) فيطلق على الشخص الواحد، واختيار النَّفس هنا أبلغ لتعلّقها بنفي التكلّم إلا بإذن اللّه، كأنّه قال: لا تتنفّس إلا بإذنه.

(1) ابن جني، المخصص، ص: 179.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (نفس).
(3) السياغي، تحفة المشتاق، ص: 14.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»